النقد الادبي — ١

الاخطل الصغير

او بشاره الخوري صاحب « الابرق » البيروتية

لمحمود ابو الوفا

كانوا يطلقون على ابن هانئ الأندلسي أنهُ متنبي الغرب . فهل يؤذن لي الآن أن اطلق على الأخطل الصغير أنهُ شوقي لبنان. قال بعضهم لولده أي عظيم تريد أن تكونه يا بني . فقال الولد اريد أن أكون مثلك . قال الوالد لقد كنت في مثل سنك هذه يا بني أطلب أن اكون مثل علي بن ابي طالب . وها هو الفرق بيني وبين ابن ابي طالب على ما تراه . فهل تحبُّ أن يكون الفرق بينك وبيني بمقدار ما بيني وبين ابن ابي طالب

وعلى هذا القياس فاذا عسى ان يكون المثل الأعلى للاخطل الصغير . لاشك انهُ كان عظيماً جداً ولكني ارجو ان لا اجانف الصواب اذا قلت ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن سوى الأخطل الكبير فان هذا هو الرجل الذي يقال فيهِ بحقٍّ « هو الشاعر من فرعه الى قدمه » وحسبك بشاعر نصراني ، يدعونهُ شاعر بني امية في زمن معاوية اعني في صدر الاسلام ثم حسبك منهُ بشاعر يشير لنا ابو العلاء المعري الى مكانته في الشعر وانت تعرف من هو ابو العلاء في نقد الشعر والبصر به فيقول المعري (ان السادات كانت تطرب على قوله)

أناخوا فجروا شاصيات [1] كأنها رجال من السودان لم يتسربلو
فصبّوا عُقاراً في الاناء كأنها اذا لحسوها جدوة تتأكل
تدبُّ دبيباً في العظام كأنهُ دبيب نمال في نقا يتهيل

أزعم واثقاً أنني أدنى الى الحق ان المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن الا هذا الروح الشعري العالي الذي أعجب بهِ السادات من امية حتى طربوا له وشربوا عليهِ واؤكد أنهُ لو لم يكن للاخطل الصغير هذا المثل الاعلى لما استقرَّ شعره على هذا الاسلوب النادر في هذا العصر الذي اذا شكى منه الادب فلن تكون شكاته الاَّ ضعف الاساليب فيهِ . . . ان للاستاذ الخوري اسلوباً شعرياً متفرداً بين اساليب الشعراء اللبنانيين تفرُّد اسلوب شوقي بين الشعراء

(١) زقاق الخمر كبيرة مثل الدن

المصريين فكلا الشاعرين في بيئته نسيج وحده كما يقولون . وكلاهما في جيله يمثل طبقة فاتحة بذاتها فأنت حين تنظر الى شعره تراه كأنهُ يتهادى الى الاسماع في موكب من الأبهة والرونق والجمال فلا تملك نفسك دون التشيع منه والتوجه اليهِ ، وان كنت رأيت مثل هذا الموكب كثيراً ، وكثيراً جداً . ولا اظن الاستدلال على قرب هذين الشاعرين احدهما من الآخر يكلفك اكثر من الاطلاع على هذين النموذجين

قال شوقي بك في رثاء الزعيم زغلول باشا

كفنوا الشمس ومالوا بضحاها وانثنى الصبح عليها فبكاها

وقال الاخطل الصغير في رثاء الزعيم فوزي الغزي

كفنوا الشمس بريحان وورس بالشمس آذنت من عبد شمس

فأنت ترى كيف يتواطأ استهلال الشاعرين في رثاء الزعيمين السياسيين فيستعملان الفاظاً واحدة ويذهبان في افق واحد تقريباً . كذلك يقول الاخطل الصغير في رثائهِ المؤثر البليغ لغبطة البطريرك الكبير ماري الياس الحويك

جبريل عند رثاته متواضع ويسوع خول سريره يتهادى

ويقول شوقي بك في بعض مطالعه — جبريل هلل في السماء وكبر —

ويقول ايضاً في موكب استقبال ام المحسنين

واتركي فضل زماميه لنا فتناوبْ نحن والروح الامين

وهكذا تجد الكثير من شعر هذين الشاعرين متفقاً في الفاظه واستعاراته وتشبيهاته توافقاً خليقاً ان يعقد له فصل قائم بذاته . صحيح ان بعض المتقدمين من النقاد كانوا يسمون هذا النوع من التوافق بين الشعراء (اخذاً) ويقصدون ان اللاحق اخذه من السابق وكانوا يرونهُ نوعاً من المحاكاة والتقليد وربما غالى بعضهم فسماه سرقة ولكن التحقيق انهُ ليس كذلك فان الشاعر الذي يأخذ من غيره تقليداً او محاكاة ، لا يكون معتداً (بفنه) يعني ان ثقته بفنه ان لم تكن معدومة البتة فانها تكون ضعيفة . ولكن هذا الاخطل الصغير يرينا انهُ يثق بفنهِ ثقة لا حدّ لها فهو يقول في رثائهِ للبطريرك

اوحيد امتهِ تقىً وهدايةً هلاّ سمحت وجيدها انشادا

خلصت قصائده عليك عيونها وحبتك من ورق الخلود وسادا .

بل ان الاخطل هنا في هذا المعنى اكثر من شوقي ذهاباً بنفسهِ واعتداداً بفنهِ فقد اكتفى شوقي حين قرر هذا المعنى ان يجعل شعره درجات للخالدين فقط فقال لام المحسنين

لا تروي غير شعري موكباً ان شعري درجات الخالدين

اما صاحبنا الاخطل الصغير فقد ابى الاّ ان يجعل شعره هو المتصرف في هذا الخلود يحبو

به من يشاء . ولعله يمنعهُ من يشاء ايضاً . ولا شك ان شاعراً يعتدّ بشعره كل هذا الاعتداد ويزهو بنفسه هذا الزهو لا يعقل ان يكون آخذاً من غيره ولا مقلداً له لان المقلد من اضعف الناس امام نفسه ولولا ذلك ما استعار قوة غيره. وبرهان آخر يجب الآن ان يذكر هو ان المقلد الذي يأخذ معاني غيره محاكاةً لا يمكن ان يكون اكثر من ناظم ويستحيل ان يكون شاعراً بالمعنى الصحيح لكلمة شاعر . لان من المستحيل على مقلد ان يفهم الشعر الاّ على انهُ هو الكلام المنظوم المقفى كما هو تعريفه في الكتب المدرسية الى الآن . ولكن الاخطل الصغير يعرفنا الشعر اعظم تعريف يطمئن اليه الشعراء الصادقون فهو يقول في قصيدته (عمر ونعم)

والشعر روح الله في شاعره ذلك يوحيه وهذا ينشر
الحكمة انعراء من احشائه وعدن من اوطانه وعبقر
له على الآفاق فتح زاهر وفي عباب الماء فتح ازهر
يمتيهما منه خيال مارد ابو الفتوحات الذي لا يقهر

* * *

تعاق العلم على اسبابه لحاق الطود وفاق الحجر

واذن فوقوع شاعر مثل الاخطل الصغير على الفاظ ومعاني شاعر سائر الشعر جوّال القافية مثل شوقي بك لا يصح ولا يعقل ان يدخل في باب (الآخذ والمأخوذ) كما انهُ لا يصح ان يسمى ذلك تقليداً ومحاكاة . واما هذه مسألة راجعة فيما اعتقد انا الى توافق الشاعرية في هذين الشاعرين . لكن الذي يجب ان يفهم على وجهه الصحيح ايضاً هو ان هاتين الشاعريتين المتوافقتين لا يلزم ان تكونا متساويتين الا في الاسلوب وما يتعلق بالاسلوب من الاستعارات والالفاظ . اما الانتاج الشعري وما يتعلق بهِ من الصور الشعرية والمذاهب الفنية وما الى ذلك من جميع مواهب الشاعر فلا يلزم ان تتفقا لأن الشاعرية شيء والشعر شيء آخر

وكثيراً ما نجد الاراضي الزراعية تكون متفقة مع اختها في المعدن تمام الاتفاق ولكن محصول هذه غير محصول تلك لذلك قد يكون الشاعر متفقاً مع الآخر في المزاج الشعري — الشاعرية — ولكن لكل منهما فنه في الشعر بل قد يكون لكل منهما في الشعر والحياة مذهب يخالف مذهب صاحبه . فهذا ابو الطيب المتنبي قد اشتهر بالحكمة حتى كان النقاد المتقدمون يخصونه بالحكمة ويخصون البحتري بالشعر فيقولون الحكيم هو المتنبي والشاعر هو البحتري . وكان ابن هانىء الاندلسي لم يشتهر الا بالاغراق ومع ذلك فان هذين الاثنين كانا متفقين في الشاعرية باجماع النقاد المتقدمين تقريباً . ولهذا التوافق في الشاعرية لا لغيره كان هؤلاء النقاد يطلقون على ابن هانىء لقب متنبي الغرب. فالمسألة ليست هي الشاعرية وحسب وليس فخر الشاعر ان يكون متفقاً في سمو الشاعرية مع اعظم شاعر ظهر على وجه الارض

فان الشاعرية لا تزيد في نظر الناقد عن كونها احدى الملكات الموهوبة التي قد يحسن صاحبها في استعمالها وقد يسيء . وانما فخر الشاعر الحقيقي هو فيما يكشفه للناس من الجوانب الخافية في الحياة . والناقد المنصف البصير هو الذي لا يطلُّ على الشاعر الا من جهة مذهبه الشعري الاصلاحي ليعرف الى اي جهة يريد ان يسوق الحياة بمحدائه أو غنائه وفي اي جهة يريد ان يتجه بها فان لم يكن للشاعر مذهب يدعو له ولا مثل اعلى يرمي اليه فان شعره لا يكون جديراً بالنقد بل هو في مذهبي لا يكون جديراً بان يعد في الشعراء الخالدين

***

والآن فنحن اذا سلطنا هذا المنظار الدقيق على شعر الاخطل الصغير فكيف نجده — اني هنا افضل أن اعطي الكلمة للاستاذ ميشال ذكور قال :

« الاخطل الصغير او بشاره الخوري مسميان لشخص واحد هو صاحب البرق الذي لا يجاريه شاعر عربي آخر في لبنان وسوريا بخياله وعذوبة الفاظه ورقة معانيه لانهُ لا ينظم الا مذيباً شيئاً من روحه الحساسة . . . » والحق ان كلام صاحب المعرض الغراء كله حق فانك تقرأ شعر الاخطل فتجد فيه ديباجة هي اشبه بديباجة شعر شوقي كما اسلفت القول كما تجد فيه روحاً وجدانية تترقرق كما تترقرق المياه الصافية بين الاعشاب والصخور فاذا انت من هذا المزيج الشعري امام شاعر لا هو في الشعراء الصناعيين ولا هو من الشعراء الوجدانيين ولكنه يرضي الوجدانيين والنفسيين واصحاب العواطف والاحساسات المشبوبة بمقدار كما يستطيع ان يرضي الديباجيين من اصحاب الصناعة والفن . وبعبارة اكثر صراحة نقرر ان الاخطل الصغير لم يضرب على قيثارة فوزي المعلوف ولا على مزهر القروي ولا على الحان جبران ولكنه سبح في مسابح مطران وايليا وامثال هؤلاء من الشعراء اللبنانيين المتعصرين ولا شك انه وفق في مذهبه الفني كل التوفيق وان التاريخ عندما يظهر كلمته النهائية في هؤلاء الشعراء الذين حملوا لواء تجديد الشعر العربي لسوف يضع اسمه في طليعتهم اما مذهبهُ الاصلاحي وصوره الشعرية فليس ادل عليه من هذه المناحي التي قصد اليها في قصائده الثلاث الرنان المزيف التي يقول فيها : —

ويح الفقير فما تراه يلاقي سدت عليه منافذ الارزاق
عَلَقَ المجاعة مصَّ بعض دمائه وتعسف الحكام مصَّ الباقي

وقصيدته التي جعل عنوانها «من مآسي الحرب الكبرى» وهي التي يلخص لك غرضه من موضوعها في قوله يدعو الله عساه أن يستجيب له

واخلق الانسان خلقاً راقياً واقتل البغض به والكبرياء
واجعل الحب الهاً ثانياً واسجن المال ولا تنس الرياء
وليكن كل امتياز لاغياً يخرج الناس على حد سواء

ويقول منها ايضاً

مَنْ ترى يشرح لي ذنب الفقير او ترى يظهر لي فضل الغنى

. . . . .

انهذي حكمة الله القدير لا . وجل الله عن ذا العين

. . . . .

انما هذان مثل البذرتين بذرا في الارض حتى انبثقا
فكما المقدور تين البتتين هذه قبحاً وهذي رونقا

وايضاً قصيدة عروة وعفراء ، التي نلخص لك موضوع مأساتها في قوله

بينا التي في الشام يكسح لثغتي كانت حبيبته تزف لثان
فتنت محاسنها «اثالة» وهو من «هُصَر» له سببان ملتزمان
نسب الدماء وفوقه نسبان محبوبان محترمان
فأتاله عفراء صفقة تاجر حسب البنات ملابساً وأواني

فانت ترى ان الشاعر في هذه القصائد الثلاث لا يحارب الا عدوًّا واحداً هو الفقر وهو في سبيل اجتذاب قرائه الى الوقوف في صفه والانتصار له على عدوه لا يفتأ يستعرض أمامهم مناظر الفقر في ابشع صوره وأفظع ماسيه فمرة يعرض الفقر في صورة شاب عذري الهوى حرم من حبيبته وحرمت منه حبيبته لا لشيء الا أنه فقير فتكون النتيجة موت الحبيبين معاً (عروة وعفراء) ومرة اخرى يعرض لك هذا الفقير والغني يغالبه حتى يغلبه في صورة آلام الام الطاهرة العفيفة التي ذهبت هي وبنتها الطفلة البريئة ضحية «الريال المزيف» . ومرة ثالثة يريك كيف يستطيع الغني الفاسق المشوم ان يعبث بدماء العذارى الفقيرات . وهكذا لا يزال بك حتى تؤمن معه ان الفقر هو عنصر القبح هو الظلام . هو الشر . هو العدو الوحيد الذي يجب أن يقاتل في هذه الحياة . ولا ريب أن هذه هي فطرة الشاعر الذي ينظر الى جواهر الاشياء لا الى الاشياء وحسب . نظرة الشاعر الذي يرجع شعره الى ما وراء الحواس . ولا ريب ان هذا هو الشاعر العظيم